

موققة لبث فيها أربعة أعوام نعم بالاستقرار والهدوء المستمر بعيداً عن غمار السياسة والدسائس السلطانية والمخاطر التجوالية والحربية ، وقد استفرن في كتابة مقدمته خمسة أشهر ثم تقحها وهذبها بعد ذلك ثم شرع بعد إتمامها في كتابة تاريخه ، وقد رفعه إلى السلطان أبي العباس المغربي ، وأنشده قصيدة طويلة يشيد فيها بسيرته وأعماله ، ويستدر عطفه ورعايته ، وينوه بكتابه يقول فيها :

وإليك من سير الزمان وأهله عبراً يدين بفضلها من يمدل
والله ما أسرفت فيما قلته شيئاً ولا الإسراف مني يجمل
ولقد كان ابن خلدون أعظم سياسي ومفكر عرفته إفريقية
والأندلس في القرن الثامن الهجري .

ابن خلدون في مصر

غادر ابن خلدون تونس لينتظم في ركب الحجاج ، ولكنه لم يحقق تلك الغاية فقد نزل القاهرة ليقتضى أيامه بمصر في هدوء ودعة واستقرار ، وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الإسلامي في الشرق والمغرب ولبلاطها الشهرة الواسعة في حماية العلوم والآداب ، فبهرت ابن خلدون ضخامة القاهرة وعظمتها كما بهرت كل من رآها من أعلام الشرق والمغرب فوصفها بقوله : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، وإبوان الإسلام ، وكرسى الملك » ولقد كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصية وسيرته ، ولا سيما مقدمته التي أذاعت فضله ، فأقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب ، وقد كان ابن خلدون محدثاً بارعاً ، رائع المحاضرة ، يجلب ألباب سامعيه بمنطقه ؛ هذا إلى فصاحته وجمال صورته ، فتقرب من السلطان الظاهر برقوق .

وإنه لمنظر شائق ذلك الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه ، ومن حوله العلماء والكبراء يشهدون الدرس الأول حيث يقول : « وانقضى ذلك المجلس ، وقد شيعتني العيون بالنجلة والوقار »

عين ابن خلدون قاضياً لقضاة المالكية تنوياً بذكره ، وإعلاناً لشأنه ، وقد ثارت حوله عاصفة شديدة بسبب الحقد والسماية ، وقد بين ما كان يسود جو القضاء في مصر في ذلك الحين من جهل وفساد في الذمة ، وأنه جاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وما زال أمره بين جزر ومد إلى أن عزل من منصبه ، وغادره موفور الكرامة والهيبة ، فانقطع إلى الدير

ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربية للأستاذ عيسى محمود ناصر

حياة ابن خلدون قصة من أعجب قصص الخيال ، ومغامرة لم تتح لكثير من عطاء الرجال ، لا يزال تراثه فريداً في بابه بين آثار التفكير الإسلامي ، وما يزال يحتفظ بقيمته وروعته ، ويتبوأ مكانته بين التفكير العالمي . وها نحن أولاء بدأنا نقبّه إلى رجالنا لنقدرهم قدرهم ، وندرس آثارهم ، ونحفظ لهم مكانتهم ، ونحجي ذكراهم ، بما أدخل من نظام المسابقات التي تقدمها وزارة المعارف لطلبة السنة التوجيهية في مواد الدراسة المختلفة ، وكان منها دراسة مقدمة ابن خلدون . ونحن بهذا النظام نحجي ذكرى فيلسوفنا الاجتماعي الكبير ، وقد مضى عليه أكثر من ستمائة عام ، وهو على قدمه يجب أن يكون مثلاً عالياً لجميع الشباب ، وأن يقرءوا مقدمته القيمة ، فهي ثروة لا تقدر في تراث البيان العربي ، والتفكير العربي . على أن لابن خلدون صلة خاصة بنا نحن المصريين ؛ فلقد كانت له بمصر جولات ونظريات ، كما كانت مصر مئوى إقامته ، وإن كانت تونس تفخر به لأنها مستهل ولادته . وحسب ابن خلدون فخراً أنه السابق إلى وضع مبادئ علم الاجتماع الذي مازال موضع إعجاب الغرب وتقديره . ولست في هذه المجالة متمرضاً لنشأته ، وتاريخ حياته فهي في تناول الطلبة . على أنه عني بنفسه فوضع ترجمة له دونها بقلمه ، وصور فيها كثيراً من أطوار حياته ، وما تقلد من مناصب ، وما قام من رحلات ومغامرات .

بدأ ابن خلدون مؤلفه التاريخي العظيم وهو في الخامسة والأربعين من عمره ، وقد نضجت مباحثه ومطالباته في الكتب والحياة بمد أن قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة متقلباً في خدمة القصور والدول المغربية يدرس شؤونها ونظمها ، ويستقصى سيرها وأخبارها متغلغلاً بين القبائل البربرية يدرس طبائعها ، وأحوالها ، وتقاليدها في الحياة العامة والخاصة ، وقد أعانه على ذلك ذهنه الحصب المتوقد ذكاء ، وعزلته في قلعة « سلامة » على حدود تونس الغربية فلقد كانت عزلة مباركة

رأسه ثم سأله عن البردة ، وذاق من الحلوى ووزع منها على الحاضرين ، وقد أنكر مؤرخ مصرى معاصر هو المقرئى هذه الرواية ، وانضم إليه ابن إياس المؤرخ المصرى .

وماليت ابن خلدون يولى منصب القضاء فى مصر ويعزل ست مرات بسبب كيد خصومه ودسائسهم له إلى أن توفى سنة ثمان وثمانائة هجرية وقد بلغ نيفاً وسبعين سنة من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة العزيزة وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء .

قضى ابن خلدون فى مصر ثلاثة وعشرين عاماً كانت أقل مراحل حياته حوادث وإنتاجاً ؛ فقد عاش بعيداً عن شئون الدولة السياسية بمد أن لبث بالمغرب ربع قرن وهو يتجرد من ثوب السياسى العامر ليتشح بثوب العالم المقتدر . على أنه لم يستطع أن ينشئ له بمصر مدرسة يطبها بطابعه وآرائه ومناهجه وذلك راجع إلى روح النفور والخصومة ، فقد سبقه إلى مصر حكمه على أهلها بأنهم قوم يغلب عليهم الفرح والخفة والغفلة عن العواقب ، على أن ابن خلدون كان يحظى بتقدير فريق قوى من الرأى العام المصرى الفكر وعلى رأسه العلامة المقرئى الذى تأثر بنظرياته تأثراً كبيراً كما يظهر أثر ابن خلدون فى اعتماد بعض أكابر الكتاب المعاصرين عليه والافتباس من مقدمته وتاريخه ، ومن هؤلاء الفلقشندى صاحب صبح الأعشى .

أثر ابن خلدون الفكرى والادبى

اعتبر ابن خلدون التاريخ علماً يستحق الدرس لا رواية تدون وتقرأ ، فانهى به البحث إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية ، وكتب مقدمة مؤلفه التاريخى لتكون تمهيداً يقرأ على ضوءها التاريخ ، وتفهم دقائقه فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق تسجل مذهباً جديداً فى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها ، وفى فهم التاريخ ونقده وتحليله ؛ فهو يحاول أن يتتبع المجتمع فى جميع أطواره منذ نشأته وبدأته إلى استقراره وانتظامه فى المصر والدولة وتردده بين الضعف والقوة والفتوة والكهولة والنهوض والسقوط مقسماً موضوعه هذا إلى ستة فصول كبيرة هى :

١ - العمران البشرى على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض

٢ - العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل

والتأليف إلى أن أذن له السلطان بأداء فريضة الحج ، ثم عاد بطريق البحر حتى القصير محترقاً الصميد بطريق النيل فوصل القاهرة

وليس فى حياة ابن خلدون فى هذه الفترة التى قضاها بمصر ما يستحق الذكر سوى سعيه إلى عقد الصلوات بين البلاطين القاهري والمغربى ، فهو يصف المهادة بين صلاح الدين ، وبنى عبد المؤمن من ملوك المغرب ، وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين ، ويصف الهدايا المصرية والمغربية فيبدأ سلطان تونس بأهداء خيل مسومة وسروج ذهبية

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء أربعة عشر عاماً وكان بالفيوم يعنى بفتح ضيعته التى يستحقها من الأوقات ، فاستدعاه السلطان إلى القضاء ، فلما استقرت الأمور بمصر استأذن فى السفر إلى بيت المقدس فأذن له ؛ فشهد المسجد الأقصى وقبر الخليل وبعض الآثار ثم عاد من رحلته إلى القاهرة ، ثم وردت الأنباء بانقضاء « تيمورلنك » بجيوشه على الشام واستيلائه على حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب فروعت مصر ، وهرع « الناصر فرج » بجيوشه للإغاثة الفاتح التترى وردده ، وقد اشتبك جنود مصر بجند الفاتح فى ظاهر دمشق فى معارك شديدة ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بينهما ، ولكن خلافاً دَبَّ فى معسكر المصريين ، ومؤامرة دبرت لخلع السلطان ؛ فترك السلطان دمشق لمسيرها ورجع إلى القاهرة . وهنا تتجلى لنا نزعة مؤرخنا الفيلسوف فى معاصراته ، فقد رأى أن يعتم بصبر بالجرأة وأن يعادر جماعة المترددين إلى معسكر الفاتح فيستأمنه على نفسه ومصريه ، ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء بقوله : « ودخلت عليه « المراد تيمورلنك » بنجيمة جلوسه متكئاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه ، فلما دخلت عليه أحنيت بالسلام ، وأومأت بإعانة الخضوع فرفع رأسه ، ومد يده إلى قبيلتها » ، وتحدث الفاتح طويلاً إلى المؤرخ ، وحديثه المورخ بأنه كان يسمع به ، ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة ، واستطاع ابن خلدون أن يقنع الرؤساء بالتسليم ، وفتحت دمشق أبوابها للفاتح فنجت من بطشه . وقد قدم ابن خلدون إلى الفاتح هدية هى : مصحف رائق ، وسجادة أنيقة ، ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة . فوضع « تيمورلنك » المصحف فوق

٣ - الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية

٤ - العمران الحضري والبلدان والأمصار

٥ - الصناعات والعاش ووجوه الكسب

٦ - العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه

وهذا التقسيم يشهد بتفوق هذا الذهن العبقري وطرائقه وقوة تدليله وجدله . وأجود هذه الفصول (الفصل الثالث) وهو خاص بالدولة والملك وخواصهما مبيناً أن الملك طبائع وللدولة أعماراً كالأشخاص ، فهو يقدر لها ثلاثة أجيال في الغالب ، ويقدر الجيل بأربعين عاماً متأثراً في هذا التقدير بما ورد في القرآن الكريم عن بنى إسرائيل حين فقدوا عصيتهم وكانوا عاجزين فماتهم الله بالتيه في قفار سيناء أربعين سنة ليخلق منهم جيلاً جديداً يعوى على المطالبة والتغلب . وفي هذا الفصل تبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع ، كما يدل ذلك على براعة ذهنه . ثم يتناول الدولة وتحولها من البداوة إلى الحضارة في الفصل الرابع ، وبيان أطوارها المختلفة ، وأثر الموالى والمصطنعين في هذا التطور . ثم يتناول الملك والإمامة والخلافة واختلاف الآراء في شأنها ومذاهب الشيعة والخطط الدينية من القضاء والعدالة والسكة ، ثم الوزارة ودواوين الأعمال والجباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل ورسوم الملك والحروب ومذاهبها والمكوس ونظم التجارة ، ثم يتحدث عن البلدان والأمصار ونشأة المدن واختلاف ظروفها من خصب ورفاهية وجذب وقر وتفاوت في الغلات والصناعات واللغة

من هذا كله يتبينون أن ابن خلدون مخترع هذا العلم وصاحب الفضل الأول في ابتكاره وهو ما يسميه « بالعمران

والاجتماع البشري » فقد أفاض في هذه النظريات مصحوبة بالشواهد مترابطاً بعضها ببعض ، وكل ما خلفه أسلافه لمحات مبعثرة ضئيلة . على أن هذا العلم الذي استحدثه ابن خلدون أتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانة بين علومنا الحديثة في الاجتماع وفلسفة التاريخ والنظام السياسي والاقتصاد السياسي . وفي دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربية ما يؤيد ذلك

أما أسلوبه فخاص يتميز به ابن خلدون من غيره في العرض والتنظيم ، كما أن مقدمته تمتاز بطرافة موضوعاتها وروعة أسلوبها الأدبي الذي يجمع بين البساطة وقوة التعبير ، ودقة التدايل ، وحسن الأداء والتناسق . والمقدمة مثل حسن للفصاحة الرسالة والعرض الشائق النظم ؛ وذلك على الرغم مما يطرأ أحياناً من ضعف في العبارة وضعف في التأليف وعمرابة في التعبير وشذوذ في اللفظ يرجع إلى نشأة ابن خلدون البربرية . وأسلوبه في تاريخه أقل درجة من أسلوبه في مقدمته . على أن لهذه المقدمة تأثيراً قوياً في الكتابة في أوائل العصر الحاضر إذ كانت الأسلوب الأمثل لكتاب الصحف والمجلات في بدء النهضة الحديثة ، فقد نشرت المقدمة لأول مرة في مصر سنة ١٨٥٧م فرقت الأسلوب الأدبي في مصر والشرق من السجع وتكلف البديع والزخارف اللفظية التي تسهك الماني ، إلى الاسترسال في الكتابة فكانت نموذجاً يحتذى ويضرب به المثل ، فارتقى النثر الفنى والعلمى إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن من الإجابة والإتيان ...

(البقية في العدد القادم)

هـى محمد ناصر

المدرس بمدرسة الفيوم الثانوية

ظهر حديثاً

الجزء الرابع من كتاب

فيض الخاطر

للأستاذ أحمد بك أمين

نمن كل جزء من الأجزاء الأربعة ٢٥ قرشاً

عدا أجرة البريد

ملتزمة نشره

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدل بالقاهرة

الصدِّيق أبو بكر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ثمنه ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد ٤٣ ملياً داخل القطر

و ٨٠ ملياً خارج القطر

ملتزمة النشر

مكتبة النهضة

٩ شارع عدل بمصر